

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ» [البخاري: (5965)، ومسلم: (1051)].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ! أُنْزِلَ أَنْ كَثْرَةَ الْمَالِ هُوَ الْغِنَى؟ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ؛ مَنْ كَانَ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ فَلَا يَضُرُّهُ مَا لَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَنْ كَانَ الْفَقْرُ فِي قَلْبِهِ فَلَا يَغْنِيهِ مَا أَكْثَرَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ شُحُّهَا» [صحيح الجامع: (2914)].

قال العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ثبت في الصحيحين عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ، يُعْفَ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ، يُغْنِهِ اللَّهُ». [البخاري: (1469)، ومسلم: (1053)].

هذا خبرٌ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووعدٌ وترغيبٌ في الاستغفار والاستغناء عن الخلق.

والفرق بين الأمرين فرقٌ ما بين الوسيلة والمقصود، وما بين اللازم والملزوم، فَإِنَّ مَنْ اسْتَغْنَى بِاللَّهِ وَبِرِزْقِهِ، وَمَا قَسَمَ لَهُ اللَّهُ وَأَعْطَاهُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى غَيْرِ رَبِّهِ وَغَيْرِ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ: اسْتَعَفَّ عَنِ الْخَلْقِ وَلَمْ يُعَلِّقْ بِهِمْ قَلْبَهُ، لَا خَوْفًا وَلَا رَجَاءً، وَلَا طَمَعًا، وَلَا رَغْبَةً. وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَأَشْرَفُهَا.

ولهذا خلق الله العباد ليعبدوه وحده، ويطلبوا الرِّزْقَ والنَّصْرَ منه وحده، وَيُعَلِّقُوا رَجَاءَهُمْ وَطَمَعَهُمْ وَسُؤَالَهَمُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَيَرْضَوْا بِقَضَائِهِ وَقَسَمِهِ وَقَدَرِهِ وَلَا يُعَلِّقُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ بِالْمَخْلُوقِ، مَعَ بَذْلِهِمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي يُدْرِكُونَ بِهَا هَذِهِ الْأُمُورَ الْجَلِيلَةَ.

ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ، يُعْفَ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ، يُغْنِهِ اللَّهُ»⁽¹⁾.

أي: مَنْ اجْتَهِدَ عَلَى تَحْصِيلِ الْعَفَّةِ وَالِاسْتِغْنَاءِ بِحَسَبِ مَا يَقْتَدِرُ عَلَيْهِ وَيَسْتَطِيعُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَبَذَلَ جُهِدَهُ وَجَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ: أَعَانَهُ اللَّهُ وَوَفَّقَهُ وَيَسَّرَ لَهُ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي طَلَبَهُ وَرَغِبَ فِيهِ وَبَذَلَ فِيهِ مَقْدُورَهُ، لَعَلَّمَهُ بِمَحَبَةِ اللَّهِ لَهُ، وَلَعَلَّمَهُ أَنَّهُ يَكْسِبُ الرِّزْقَ الْحَقِيقِيَّ وَالْمَرَاتِبَ الْعَالِيَةَ.

فَأَرَادَ اللَّهُ قَلْبَهُ مِنْ تَعَلُّقِهِ بِالْخَلْقِ، وَأَرَادَ مِنْ تَشَوُّشِ الْأَسْبَابِ وَإِتْيَانِهَا عَلَى غَيْرِ مَرَادِهِ، وَاطْمَأْنَنَ قَلْبَهُ وَحَيَّ حَيَاةً طَيِّبَةً سَعِيدَةً.

فَإِنَّهُ لَا أَهْأَأَ حَيَاةً وَلَا أَلَذَّ، مِمَّنْ قَطَعَ رَجَاءَهُ عَنِ الْخَلْقِ، وَاسْتَغْنَى عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ، وَلَمْ يَتَطَلَّعْ إِلَى مَا عِنْدَهُمْ، بَلْ قَنَعَ بِرِزْقِ اللَّهِ وَاسْتَغْنَى بِفَضْلِ اللَّهِ وَعَلِمَ أَنَّ: (الْقَلِيلَ مِنَ الرِّزْقِ إِذَا أَكْسَبَ الْقَنَاعَةَ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الَّذِي لَا يُغْنِي). فليس الغنى عن كثرة العرض، إِنَّمَا الْغِنَى فِي الْحَقِيقَةِ غِنَى الْقَلْبِ، غِنَاهُ بِاللَّهِ، وَبِرِزْقِهِ الْمَتَّيَّسَّرِ عَنْ رَجَاءِ الْخَلْقِ وَسُؤَالِهِمْ وَالِاسْتِعْبَادِ لَهُمْ فِي مَطَالِبِ الدُّنْيَا وَالرُّضُوحِ لِرِقِّهِمْ.

(1) "وهاتان الجملتان متلازمتان، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة وتعلقاً به دون المخلوقين. فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك، حتى يكون عبداً لله حقاً حراً من رق المخلوقين، وذلك بأن يجاهد نفسه على أمرين: انصرافها عن التعلق بالمخلوقين بالاستغفار عما في أيديهم، فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله... وتتمام ذلك: أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني: وهو الاستغناء بالله والثقة بكفائته، فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه، وهذا هو المقصود، والأول وسيلة إلى هذا، فإن من استعف عما في أيدي الناس وعما يناله منهم، أوجب له ذلك أن يقوى تعلقه بالله، ورجاؤه وطمعه في فضل الله وإحسانه، ويحسن ظنه وثقته بربه، والله تعالى عند حسن ظن عبده به، إن ظن خيراً فله، وإن ظن غيرَه فله، وكل واحد من الأمرين يمد الآخر فيقويه، فكلما قوي تعلقه بالله ضعف تعلقه بالمخلوقين وبالعكس". [بهجة قلوب الأبرار للعلامة السعدي رحمه الله - الحديث الثالث والثلاثون]

وهذه المرتبة العالية كل يحب الوصول إليها والاتصاف بها.

ولكن أكثر الخلق متخلف عنها، غير عاملٍ بالأسباب الموصلة إليها، ولا متجردٍ من الموانع المانعة من تحصيلها، جهلاً وتهاوناً واشتغالاً بما يضرُّ عَمَّا يَنْفَعُ، وبالمراتب الدنيئة عن المراتب العلية.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا هِيَ هَذِهِ الْأَسْبَابُ الَّتِي تَنَالُ بِهَا هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ الْجَلِيلَةُ؟

قلت: قد ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفس هذا الحديث، وهي قوله: «يَسْتَغْفِرُ» و«يَسْتَغْنِ»، أي: يسعى في ذلك وفي طلبه، ويسلك كل سبب يوصله إليه.

فأول ذلك: مجاهدةُ نفسه على الاتصاف بذلك، ثم سؤال الله والالحاق عليه أن يُعِينَهُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ.

فإن من اجتهد، واستعان بالله، وألحَّ عليه في السؤال: لم يخيبه الله.

فإنه أمر بالدُّعاء، ووعد عليه الإجابة، في جميع الأدعية التي أفضلها وأعلاها: أن تدعو الله بالتوفيق لمراضيه، وبالحفظ والوقاية عن مناهيه؛ فما خاب من سألَه ورجاه، ولا من طمع في تحصيل فضله وخيره وهداه⁽²⁾.

(2) "ومن دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى» [رواه مسلم: (2721)]، فجمع الخير كله في هذا الدعاء، فالهدى: هو العلم النافع، والتقى: هو العمل الصالح، وترك المحرمات كلها، هذا صلاح الدين.

وتتمام ذلك بصلاح القلب، وطمأنينته بالعفاف عن الخلق، والغنى بالله، ومن كان غنياً بالله فهو الغني حقاً، وإن قلت حواصله، فليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى القلب، وبالعفاف والغنى يتم للعبد الحياة الطيبة، والنعيم الدنيوي، والقناعة بما آتاه الله". [بهجة قلوب الأبرار للعلامة السعدي رحمه الله - الحديث الثالث والثلاثون]

العِفَّةُ وَالْعِزُّ

وَطُرُقُ تَحْصِيلِهِمَا

لِلشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ

عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ

رَحِمَهُ اللَّهُ
(١٣٠٧-١٣٧٦هـ)

فما أنفع هذه الوصية وأحلاها، فإنَّ العزم الجامع المصمَّم الذي لا تردُّ فيه، خير آلة ووسيلة لإدراك جميع المطالب.

والخلل يأتي:

* إما من عدم العزم * أو من ضعفه وتردُّده، * أو من عدم ثبوته واستمراره. فمتى عزم على قطع أمله من الناس، وقطع استشراف قلبه وسؤاله لهم، حصلت له العفة التامة والغنى التام.

ومتى رأى نفسه مفتقرة إلى ما بين أيديهم، متلفتاً إليه المرّة بعد المرّة، فإنّه لا يزال مُفتقراً إليهم، ذليلاً لهم، خاضعاً لهم، وذلك هو الخسران المبين. ومن أيس من شيء، استغنى عنه.

ومما يوجب للعبد الاستغفاف والاستغناء: علمه بأنَّ افتقاره إلى الخلق وتعلُّقه

بهم، واستشرافه لما بين أيديهم، أو سؤالهم: يجلب الهم والغم، والكدر والقلق. وأنَّ استغناء عنهم، وعدم تعلُّقه بهم، يوجب راحة القلب وروحه وطمأنينته.

ثمَّ إنّه، كلّما قوي طمع العبد بالله، وقوي رجاؤه لربه، وقوي توكله، يسرَّ الله له كلّ عسير، وهوّن عليه كلّ صعب، ورزقه من حيث لا يحتسب، وكفاه الهموم كلّها، وكسب الحرية التي لا أرفع منها ولا أنفع.

المصدر: (فصل في العفة والغنى) من كتاب: "الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة"، للعلامة عبدالرحمان بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى

وإذا علم العبد: أنَّ الله تعالى عنده جميع مطالب السائلين، ويبيده خزائن الخيرات والبركات، وأنّه: ما يفتح الله للناس من رحمة، فلا ممسك لها، وما يُمسك، فلا مرسل له.

وأنَّ التعم كلها منه، لا يأتي بالحسنات إلا هو. وأنّه هو النافع الضار، المعطي المانع. وأنَّ الخلق ليس بيديهم من هذه الأمور شيء، وأنّهم جميعاً - مهما كانت أحوالهم ومراتبهم - فإنّهم فقراء إلى الله في كلّ شؤونهم.

من عرف هذا حق المعرفة: اضطرتّه هذه المعرفة الجليلة الواصلة إلى القلب، إلى تعليق الأمور كلّها على الله، وتعلُّق القلب به، وانقطاعه عن الخلق. وعلم العبد أنّه كلّما قوي تعلُّقه وطمعه في فضله، أتاه من الخير والبركة وطيب الحياة ما لا يخطر ببال!

ثمَّ إذا علم حق العلم: أنَّ تعلُّق القلب بالمخلوق، يهبطُ بصاحبه أسفل الدركات، ويجعله حقيراً ذليلاً مهيناً مهاناً، وأنَّ ذلك غير نافع ولا مفيد، بل ضرّه كبير، وشرّه مستطير.

متى علم العبد ذلك حق العلم: لم يركن إلى أحد من الخلق، ولم يرْجُهم، ولم يملكوا عليه ضميره، حتى يكون أسيراً لهم، عبداً ذليلاً. يأنف من ذلك كله.

ومما يعين على الاستغفاف، قوله ﷺ لرجل أوصاه بوصايا، فقال: «وَأَجْمَع

الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ» [صحيح الجامع: (742)].

أي: اعزم عزمًا مصمّمًا لا تردُّ فيه، على انقطاع أملك وقلبك ورجائك عمّا في أيدي الناس، فإنَّ مَنْ يئس من شيء استغنى عنه.